عبد المجيد فريد

من محاضر إجتماعات عبد الناصر العربية والدولية .. ١٩٦٧ - ١٩٧٠

(بيروت: مؤسسة الابحاث العربية، ١٩٧٩)، ٣٠٦ ص.

د. غسان سلامة

إنها وثائق. من يتتبع السياسة المعاصرة يعرف مدى صعوبة الحصول على مثيلاتها فيحاول أن يتناسى أنه بحاجة إليها، وأن العمل خارجها تكهن. إنها وثائق. لم يعترض لعلمنا على صحتها أحد، ولا على أهلية من كتبها ثم احتفظ بها لنفسه ثم نشرها. إنها وثائق. وتدوين تاريخ السنوات الثلاث الأخيرة من حياة جمال عبد الناصر، بدونها أمر لم يعد ممكناً. هكذا أخرج عبد المجيد فريد من ظلمة الأرشيفات الرسمية سلسلة من محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية، التي جرت بين هزيمة ١٩٦٧ ووفاة الرئيس المصري، فنشرها حلقات في إحدى المجلات الأسبوعية ثم سلّمها، بعد تعديل إلى (مؤسسة الأبحاث العربية) فافتتحت بها إنتاجها.

من الصعب، للوهلة الأولى، أن يشوب ترحيب الباحث أي إحباط... لولا الكلمة الأولى من العنوان، والتي تعني أنها ليست **كل** المحاضر بل بعضها. ولا ضرورة للعودة إلى يوميات السنوات المعنية ليفهم الواحد منّا أن ما تم نشره ليس إلا نزرا قليلا، يعد المدوّن بمؤلّف آخر يحوي محاضر أخرى، لكنه لا يعطي تفسيرا مريحا لقواعد اختياره. ما هي الاجتماعات التي حضرها والتي لم يحضرها ؟ ما هي تلك التي دوّن محاضرها وتلك التي اكتفى فيها بالاستماع ؟ ما هي المحاضر التي بقيت بحوزته وتلك التي لم يصل إليها أو انتزعت منه أو اعتبرها غير جديرة بالاهتمام ؟ والانطباع السائد، في ذهن من يريد أن يعرف بدقة ما يحوي الكتاب بالنسبة إلى ما يمكن أن يحويه، هو أن ضعف التجربة التوثيقية مسؤول عن هذا النقص لا نية المدوِّن أو أي هدف قد يسعى إليه. فإعجاب المدّون بعبد الناصر واضح ، ولا سبب يسمح لنا البتة بالتشكيك بأمانته . وقد أدت هشاشة التوثيق أيضاً إلى إضافة مقدمات تكاد تختلط بالنص، وإلى إعادات متكررة، كما إلى تنسيق غير منطقي للمحاضر، مع غياب تفسير فعلي للفجوات العديدة، أو عرض لما قد يحتويه الجزء الثاني. فالتفسير الكرونولوجي غير ممكن، إذ أن الجزء الذي بين أيدينا، يحوي محاضر من حزيران / يونيو ١٩٦٧ ومن أيلول / سبتمبر ١٩٧٠. والتفسير الموضوعي ليس ممكناً أيضا، ففي الجزء المنشور لقاءات داخلية وخارجية واجتماعات مع العرب والأجانب واهتمامات سياسية وعسكرية واقتصادية.. لا شك أن هذه الوثائق كانت أعطيت حجمها الحقيقي لو أنها سلّمت لمن له

إدراك أوضح بوسائل التعامل معها لنشرها... خصوصا وأن دار النشر تعلمنا بادىء ذي بدء (ص ١٣) أن عبد المجيد فريد «قد حضر بحكم موقعه المسؤول، جميع اجتماعات عبد الناصر الرسمية ورافق أفكاره وأعماله عن قرب» ثم أعاد المدوِّن نفسه التأكيد فقال «... أحد عشر عاما أحضر معه جميع لقاءاته داخل مصر وخارجها. كنت حريصا على أن أسجل بقلمي جميع أقواله وهمساته». ولكن للأسف لدينا من الأولى أكثر بكثير مما بقي لنا من الثانية، والمحاضر التي بين أيدينا، لسوء الحظ كما لحسنه، رسمية بما للصفة من سلبية أيضا.

وما هذه التحفظات منا إلا تدليل على اهتمامنا بتلك المحاضر، بما تعلمنا عما كنا نجهله. إن هواة المفاجآت الضخمة والكتب ـ الفضائح سوف يملّون من قراءة هذا الكتاب. إن فيه بالأساس، تأكيداً لعدد من التصورات التي كانت لدى بعضنا عن مسار السياسة المصرية بين ٦٧ و٧٠ وعن قدرات الرئيس الراحل عبد الناصر. وفيه أيضا تصحيح حازم لمقولات متسرعة عن الموضوعين معا. إلا أن الانطباع الأقوى، الذي يتركه الكتاب في القارىء، هو أن ١٩٦٧ ما زالت الأمس القريب القريب بالرغم من ١٩٧٣ ومن كمب ديفيد ومن أشكال الانفتاح وتفتح الشهوة للزعامة. تقرأ تلك المحاضر وتراها حية في يومك هذا، وكأنها صفحات من جريدتك اليومية. متى ينتهي العدوان، كما قال أحدهم، حتى نبدأ بإزالة آثاره ؟

○ أما المحاضر المدونة فمنها ما هو بالغ الأهمية وثائقيا ومنها ما هو عادي جدا، وجدير بأن يحفظ دون اهتمام فائق في أرشيف وزارات الخارجية. أما المحاضر الأساسية فهي التي تنقل إلينا لقاء عبد الناصر ببودغورني والوفد السوفياتي المرافق غداة الهزيمة في ٢٢ و٢٣ حزيران / يونيو ١٩٦٧، وزيارة الرئيسين الجزائري والعراقي لموسكو ومحادثاتهما العنيفة أحيانا مع القيادة الجماعية السوفياتية (١٧ و١٨ تموز / يوليو ١٩٦٧) ومؤتمر الصمود العربي الذي ضم قادة مصر والسودان والعراق والجزائر وسوريا في اليوم التالي، وطبعا قمة الخرطوم (٢٩ /١٩٦٧/٨ إلى ١٩٦٧/٩/١) والتي صدرت عنها اللاءات الثلاثة الشهيرة. أما إذا تعدينا هذه المرحلة المحورية، التي تلت الهزيمة مباشرة، فتقل أهمية المحاضر نظرا لتناثرها الشديد ووجود فجوات زمنية واسعة بين المحضر والآخر خصوصاً وأنها، إجمالا، محاضر لقاءات داخلية إن لمجلس الوزراء أو للجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكي العربي. من هذه الجلسات ينبغي التوقف، على الأقل، عند تلك المعقودة في ١٩٨٠/٧/١٨ حيث حاول عبد الناصر تفسير موقفه الإيجابي من مبادرة روجرز. يلاحظ أيضا أنه يغلب على معظم اللقاءات العربية، بين مؤتمر الخرطوم (١٩٦٧) ووفاة عبد الناصر (١٩٧٠) طابع الترداد، نظرا لجمود الموقف العربي النسبي بالرغم من ومضات معركة الكرامة وحدوث انقلابين سنة ١٩٦٩ في كل من السودان وليبيا. ومن المؤسف فعلا ألا يضم الكتاب محاضر الاجتماعات العربية، ثم القمة التي أنهت النزاع الدامي في الأردن في الأيام الأخيرة من حياة الرئيس الراحل. إذ هو لا يضم فعلا إلا محضر جلسة واحدة عقدت في ١٩٧٠/٨/٢١ (أي قبل بدء الصدام الشامل) وحضرها عبد الناصر والملك حسين. ولا تشكّل بعض اللقاءات مع القادة الأفارقة أو مع رؤساء من أوروبا الشرقية محطات أساسية في المسار المدوَّن.

○ أولى المحاضر المدونة، وعلى الأرجح أهمها، هي في العلاقة مع السوفيات. المدهش في هذه الصفحات هو واقعية عبد الناصر غير المتشنجة إطلاقا. بكلام بسيط، قال عبد الناصر لمخاطبيه الآتين من موسكو: أعرض عليكم صفقة: سلاح لنا، ووجود عسكري لكم. هكذا ؟ هكذا. بكلام آخر: ميغ لمصر وموانىء للبحرية السوفياتية. في هذا المستوى من التعامل تصبح

الايديولوجيا تسلية لا فائدة كبرى منها. يكاد عبد الناصر يقول مثلا: نحن مستعدون للإعلان عن انحيازنا لجانبكم فكفوا عن مطالبتنا بذلك. وهو بالفعل يقول: « إننا في الحقيقة نعتبر منحازين في الأصل، ومن أجل ذلك تعرضنا للعدوان عام ١٩٥٦ ثم العام ١٩٦٧ ». المسألة ليست مجرد تصريحات، ولكنه يريد التهيئة لحرب مقبلة (كان هناك أنباء عن إمكانية هجوم إسرائيلي ثانٍ قبل مضي سنة على الكارثة).

في المرحلة تلك، الأساس كان حماية الأجواء المصرية من مفاجأة رهيبة كتلك التي حدثت في الساعات الأولى للحرب بإقامة دفاع جوي متين. المحاضر تثبت بوضوح أن عبد الناصر كان يريد مشاركة سوفياتية مباشرة في عملية الدفاع الجوي عن مصر معللا ذلك بضعف التدريب في أوساط جيشه. الرغبة، علنا، كانت إذن مصرية بمجيء، لا خبراء فحسب بل جنود سوفيات مقاتلين أيضا إلى مصر. وهنا المحاضر تقضي على المقولة التي رددت أن هؤلاء فرضوا على عبد الناصر ولكنها لا تكفي برأينا لاعتماد التفسير المناقض والشائع، بأن عبد الناصر كان يريد فعلا توريط السوفيات في حرب مع إسرائيل. ليس في المحاضر ما يشير إلى ذلك أبدا. ويبدو لنا أن السبب الأساسي في العرض المصري كان بالفعل تقنيا (انهيار الجيش المصري) يدعمه هدف سياسي: استباق التشنج السوفياتي العنيف فيما يخص طرق استعمال السلاح. على كل حال كان بودغورني قد أوضح (ص ٤٠): «أنه من غير المرغوب أو المطروح أن يشترك الاتحاد السوفياتي في حرب بالوقت الحاضر». وأضاف أنه «يجب ألا نحدد منذ الان موعدا للمعركة المقبلة» (ص ٤٢).

دعوة عبد الناصر الصريحة: « لا نريد طيارات فقط بل نريد أيضاً طيارين » قد تكون جوابا استباقيا على ما سوف يقوله (في ١٧/٧/٦٧) ليونيد بريجنيف لكل من عبد الرحمن عارف وهواري بومدين اللذين جاءا يستقرئان موقف الحليف الأكبر: «لنأخذ مثلا الجمهورية العربية المتحدة. سكانها ٣٠ مليونا ولكن حاملي السلاح كانوا واحدا بالمائة فقط. هل يجوز أن تقوم دول بالحرب وهي في مثل هذه الحالة ؟... في حربكم مع إسرائيل لم يكن لديكم أي تفوق عددي فكيف تنتصرون». استنتاج بريجنيف: «لا يوجد لديكم الآن جنود ولا ضباط مدربون: هل نرسل لكم خبراء وطيارين مقاتلين ؟ ربما، لكن لا قبل أن أخبركم بما يلي: «كان لنا في مصر ٤٠٠ خبير عسكري وكنا قد أوصيناهم أن لا يتدخلوا إلا في ما يطلب منهم فقط وقد تقدم ضباطنا للقيادة العسكرية في الجمهورية العربية المتحدة بطلب لمشاهدة سيناء والاطلاع على خطة توزيع القوات. لكن طلبهم رفض ولم يسمح لهم بذلك»»، عشية سنة ١٩٦٧. بكلام آخر، كان على الاتحاد السوفياتي الوصول إلى الحقائق في مصر بوسائله الخاصة، أي تماما كالأمريكان. وموسكو أوضحت بإصرار أنها لن تعيد التجربة مرة ثانية. الخبراء السوفيات يجب أن يعرفوا كل شيء وعلى كل المستويات. هذا هو ثمن السلاح وقد قبله عبد الناصر راضخا.

لكن قبوله للوجود الفعلي السوفياتي في مصر لم يكن انزلاقا إلى التبعية. وربما هناك أشكال أساسية للمناورة اتبعها الرئيس عبد الناصر لتخفيف وطأة هذا الثمن الباهظ للسلاح على حساب استقلال القرار. **الشكل الأول**: هو نجاحه في إلزام السوفيات بإرسال طيارين مقاتلين إلى جانب الخبراء، مع أن كوسيغين كان قد أجاب على أول طلب عربي بهذا الصدد بتهكم (ص ٥٥): «إنكم تعتقدون أن إرسال خمسين طيارا وألف جندي من عندنا سيحقق لكم النصر». لم يكن أي من القادة العرب قد قال ذلك. كان عبد الناصر يريد فقط تأمين تغطية حد أدنى من الأجواء المصرية خلال سنوات إعادة بناء القوى المسلحة. وقد استطاع بالفعل أن يجعل الطيارين ومقاتلي الدفاع الجوي السوفيات، يحاربون على جبهة القناة بعد ذلك بسنة. أما **الشكل الثاني**: فهو في استبقائه المستمر، بقربه،

بل في موقع الصدارة لمن هم من غير المرحب بهم في موسكو مثل الرئيس الحالي أنور السادات ومحمد حسنين هيكل. كان الأول، بصعوده غير المنتظر إشارة مفيدة للغرب بأن موسكو غير مهيمنة في القاهرة. وكان الثاني يردد بصراحته، التي لا تخلو من المطاطية المتحذلقة، أن للقيادة المصرية أكثر من خيار واحد، جاعلا قراء الصحف المصرية في موسكو يكرهون نهار الجمعة من كل أسبوع.

ذلك أنه حين يتضح الهدف، وتحدد الأولويات، تصبح المناورة ممكنة. فإذا كان الهدف هو التحرير، وإذا كان جوهر النشاط منصبا عليه، فناور لتكسب الوقت أو الصديق أو لتحيّد عدوا. لذا قبلت مصر مهمة يارينغ بمواجهة التبرّم السوفياتي والمزايدة العربية:

«إننا يجب أن نستفيد من مهمة يارينغ لكسب الوقت للاعداد العسكري لقواتنا المسلحة. كما يجب القيام في هذه المرحلة بعمليات فدائية في الأراضي المحتلة».

الوسيلتان تخدمان الهدف نفسه: إبقاء الضغط قائما على العدو بينما أنت تصرف أنظاره عن جوهر نشاطك: إعادة بناء قواتك.

وضوح الهدف، والأولوية، يساعدانك أيضا على تحديد الدور الدقيق الذي تعطيه لحلفائك. عبد الناصر يريد الابقاء على العلاقة الأميركية بكل من الأردن والسعودية بشكل يصبح فيه هذان البلدان بابا خلفيا لإبقاء الاتصال. عبد الناصر لم يقل يوما أنه يجب عليك أن تقطع الاتصال بعدوك، فقد يكون الاتصال معه مفيدا لك: لتوقع تصرفه المقبل، لاستباق مبادراته. المسألة ليست في استقبال مندوب أمريكي بل في طريقة تعاملك معه. القاعدة نفسها تطبق على السوفيات. كان بعضهم يسعى لاستصدار موقف مصري معادٍ للمفاوضات الأميركية - السوفياتية سنة ١٩٦٨ حول الصراع العربي الإسرائيلي. عبد الناصر رفض هذا التصرف. لماذا ؟ «في رأيي أن نجعل السوفيات هم الذين يدخلون في المناقشات والخلافات مع الأميركان. وبذلك بدلا من أن تكون الخلافات بين مصر والأمريكان تكون بينهم وبين السوفيات. وطبعا لما السوفيات والأمريكان، كدول عظمى، بيقعدوا على طرابيزة واحدة بتكون هناك لغة بينهم غير اللغة اللي بتكون بين دولة كبيرة ودولة صغيرة». ويضيف القائد الراحل بعد ذلك بقليل: «سأستمر في تشجيع السوفيات للسير في المباحثات والمناقشات السياسية مع أمريكا بشرط تكرار رأينا السابق الخاص بالاستفادة من هذه الفترة في استكمال إعدادنا العسكري».

وستبرز هذه القدرة على المناورة بصورة أفضل عند إعلان مصر قبولها لمبادرة روجرز. السوفيات، مرة أخرى، منزعجون. أما عبد الناصر:

«أنا تحدثت معهم بكل صراحة ، وقلت لهم إنه من الأفضل سياسيا أن نوافق على المبادأة الأمريكية الآن لأنها في الحقيقة لا تتضمن شروطا جديدة، كما أننا نتعرض في الوقت الحاضر، وأنتم معنا، لضغط دولي كبير مبني على أننا ناس عايزين الحرب فقط واليهود عايزين الحل السلمي. ولذلك عندما نوافق على المبادأة فكأننا نرد على كل هذه الحملة المخططة، بالإضافة إلى أن نص إيقاف القتال لمدة ثلاثة شهور فقط يعني إلغاء قرار إيقاف القتال بتاع ١٩٦٧ الذي ينص على إيقاف النيران إلى ما لا نهاية... كذلك فترة إيقاف إطلاق النار ستساعدنا على بناء المواقع الجديدة للصواريخ التي نحاول من شهر ديسمبر الماضي ١٩٦٩ أن نبنيها تحت وطأة الغارات الجوية دون جدوى... ثم إنه إذا رفضنا المبادأة نعطي الامريكان المبرر المناسب ليمدوا إسرائيل بأعداد جديدة من الطائرات...».

هكذا في فقرة قصيرة يوضح عبد الناصر الأهداف الأساسية المتوخاة من قبول المبادأة. هو يعرف أن لذلك ثمنا، لكنه يعرفُ أيضا أن هناك ثمنا سيرفض باستمرار أن يدفعه، وهو الذي حدده بذاته في قمة الخرطوم وقبل به الآخرون، وعلى أي حال، «هناك موضوعان لا يمكن التفريط فيهما: لن نتنازل عن أي شبر من أراضينا، والثاني حقوق الفلسطينيين».

ويقول أنور السادات، عضو اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكي. إنه لا مجال لأي كلام عن تقديم تنازلات (جلسة ١٢/١١/١٩٦٨) ويضيف: «إن القضية الأساسية تختصر بالتالي: هل يحكم شعب مصر من الخارج أم لا ؟ الأمريكان يصرون على حكم شعبنا من الخارج. لا... إن هذه المعركة مصيرية ولا بد من الصمود حتى آخرها. إن التنازلات معناها نهاية هذا النظام وزواله، ومعناها أيضا عودة حكم هذا الشعب من الخارج مرة أخرى». هل تغيّرت هذه المعادلة بين ١٩٦٨ و١٩٧٨، أم أنها قلبت رأسا على عقب بحيث زال النظام وأصبح بالامكان تقديم تنازلات ؟ ولكن الشكل الأساسي لتجنب التبعية كان (ولم يزل) مزيدا من التعامل الإيجابي مع الأقطار العربية الأخرى. هنا أيضا كان التكتيك المصري يقوم على استباق ما سوف يقوله الآخر. سيأخذ عبد الناصر المبادرة بطرح الموقف السوفياتي للنقاش في كل لقاء عربي، لإفهام الآخرين والغرب أنه بعيد عن الاستسلام للرغبات السوفياتية. في ١٨/٧/٦٧ (ص ٧٨) سوف يعبّر مثلا عن شكه بوجود اتفاق سري سوفياتي أمريكي، فموسكو لم تعلمه فعلا بما جرى في محادثات غلاسبورو الشهيرة. ويصعّد الحملة لاحقا رافضا بحزم مشروع القرار السوفياتي القاضي بإنهاء حالة الحرب. فالاعتماد على الذات هو المنطلق (ص٨٠): «عندما يجد السوفيات أننا مصرون تماما على الكفاح المسلح سيجدون أنفسهم مضطرين للسير معنا».

لكن المواجهة المحسوبة مع الموقف السوفياتي غير كافية. سيأخذ عبد الناصر المبادرة بالاتصال بالإدارة الأمريكية (أشرف غربال) وخاصة من خلال تشجيع الملكين فيصل وحسين للقيام بذلك. سوف يقول لعاهل الأردن ما موجزه: لا تقنعني بضرورة الاتصال بالأمريكان إذ أنني أدعوك للقيام بذلك، بل أفوضك التحدث باسمنا جميعا معهم. أما تبريره لهذا فهو مبني على الفارق الذي يراه بين سيناء والضفة: «إننا لا نمانع في أن يواصل الملك حسين تحسين علاقاته ببريطانيا وأمريكا، ذلك ... أن سيناء تكاد تكون خالية من السكان، لكن أطماع اليهود في الضفة الغربية قديمة ومعروفة وإني أعتبر كل يوم يمر على الضفة الغربية وهي تحت الاحتلال الاسرائيلي، هو خطوة على طريق ربطها بإسرائيل». إذن، من وجهة نظر القيادة المصرية آنذاك، تلك المتهمة بالاستسلام للرغبات السوفياتية، الأمور أكثر تعقيداً ممّا حاول المستفيدون العرب من هزيمة ١٩٦٧ (وما أكثرهم!) أن يصوروا: «أنا قلت للملك حسين أن يقوم بأي إجراء يراه مناسبا ما عدا الصلح مع إسرائيل أو التفاوض معها». ويضيف: «يجب علينا أن نناضل سياسيا وأن نرفض المشروع السوفياتي ـ الأمريكي». وينهي: «نلتزم أمامكم وأمام التاريخ، بأننا لن نتفاوض مع إسرائيل ولن نتنازل عن حقوق شعب فلسطين». وأنت تقرأ هذه الجملة تحس فعلا، وبالعمق، أن عبد الناصر مات.

ولكن عبد الناصر ليس، كما يقول البعض، نقيض أنور السادات الكلي، فهو القائل: «أمريكا وحدها هي التي تستطيع أن تأمر إسرائيل برفع أيديها عن الضفة الغربية». أن يكون هناك مكان «لدور سعودي» ليس أيضا اختراعا ساداتيا، ففي قمة الخرطوم سمع عبد الناصر يقول: «أعتقد أن الدول والقيادات العربية التي هي على علاقة طيبة بالأمريكان، يمكنها الاتصال بهم وأقترح أن يقوم جلالة الملك فيصل بمثل هذه الاتصالات حيث ينوب عنا في شرح وجهة نظرنا في القضية».

لكن الاتصال بالولايات المتحدة له حدود وشروط هي التي تناستها السياسة المصرية الحالية، وحددها عبد الناصر بوضوح: «إن الأمريكيين يريدون العودة إلى المنطقة بأي ثمن. إنهم يدركون أنهم لا يستطيعون العودة إلا عن طريقنا.. إنما شرطي الوحيد على إعادة العلاقات هو أن تتخذ أمريكا موقفا واضحا من القضية الفلسطينية وعموما فإنى أؤكد لكم وأكرر التأكيد أن إسرائيل لن تنسحب من أرضنا نتيجة ضغط أمريكي عليها ولا نتيجة جهود الأمم

المتحدة، لكنها تنسحب عندما نصبح قادرين على القيام بعمل عسكري لطردها من الأرض المحتلة». ليس هذا التقرير الصارم خاطئا إلّا إذا اختصرت الأرض المحتلة إلى سيناء وحدها دون كل الأراضي الأخرى.

المسألة إذن ليست مسألة رفض لاهوتي للآخر. ما أردنا أن نقوله هو التالي: عندما لا يشك القائد بذاته، بوطنيته، بصحة هدفه، يمكنه التعامل بحرية مع الصراع الذي فيه انخرط فلا يعود يتساءل: هل أسمح لنفسي بمصافحة العدو أو لا؟ إن الممارسة نفسها في ظرفين مختلفين تؤدي إلى نتيجتين متناقضتين، والفارق بينهما هو الفرضية ـ البدء: هل الولايات المتحدة طرف أم وسيط؟ هل إسرائيل دولة عنصرية لا تستمر إلا من خلال استمرار عدوانها على محيط يميل إلى لفظها، أم دولة عادية تصادم العرب معها لأسباب لم نعد نذكرها وأصبحت الأولوية اليوم أن نزيل «الحواجز النفسية» التي تفصلنا عنها؟ وإذا عاد أحدنا إلى شروط المنتصر غداة ١٩٦٧، لرأى أن السنوات العشر التي تفصل «الهزيمة» عن «الزيارة» قد اختزلت بشكل بدت الثانية فيه معاصرة للأولى، أو حدثا فوريا لاحقا لها وكأن حرب الاستنزاف لم تحصل ولا اختراق خط بارليف ولا انقطاع سيل النفط (الجزئي).

○ ومن أمتع ما في الكتاب أسلوب عبد الناصر في التحدث مع القادة العرب الآخرين، والذي تتضاءل فيه لهجة المفاوضة الديبلوماسية أمام الروح التعليمية المستمدة معا من الموقع المحوري ومن طول الخبرة وصعوبتها. إسمعوه يفسّر للآخرين الفارق بين الحل السياسي والعمل السياسي أو يستعين بالتشبيه لتقريب الصورة: «إحنا الآن مثل السمكة التي شبكت فيها الصنارة. إما أن تقطع السمكة الخيط أو أن تسحب الصياد إلى البحر أو يسحبها الصياد خارج البحر لتموت». هذا الهدوء، هذه السيطرة على الذات، هذا النسيان المتعمّد لكل الجروح الماضية والأحقاد الحاضرة ليس وليد الصدفة ولكنه إقرار بحجم الهزيمة وإرادة على التصدّي لها: «فلنحاول في هذه المرحلة أن نجند معنا كل بندقية، ونجند معنا كل صوت. فلنضع في الوقت الحاضر جانبا [أهمية تحديد المراحل والأولويات في كل منها] موضوع الدول العربية التقدمية والدول العربية الرجعية ولنتجنب المعارك الكلامية ونحن في غنى عنها.. على الأقل لغاية ما يخرجوا اليهود، وبعدين اللي عايز يقول أو يعمل حاجة يبقى ينفذها». وقد يفسر هذا الكلام على أنه نقد ذاتي، وإقرار بأن قدرا من الأخطاء قد ارتكب.

أما موضوع الوحدة العربية فيكاد القارىء يستعيد صفحات من وثائق محادثات الوحدة لسنة ١٩٦٣، نظرا لثبات الموقف المصري الحذر. كما في سنة ١٩٦٣، وصل إلى القاهرة رئيسان يفاتحان عبد الناصر بضرورة وحدة بلديهما مع مصر. سنة ١٩٦٣، كان دور العراق وسوريا، وسنة ١٩٦٩ جاء دور ليبيا والسودان. ولكن كلام عبد الناصر يكاد يكون نفسه مع فارق السنوات الست: لن أقع مرة أخرى في أخطاء الوحدة المصرية ـ السورية. يجب أن يكون كل شيء واضحا ومنذ البداية مهما تكن العواطف مجيشة والرغبة في الوحدة قوية. لذلك جابه عبد الناصر حماس القذافي والنميري بسلسلة من الاسئلة المبدئية التي لم يكونا يحملان أجوبة واضحة عنها: أية وحدة ؟ أي تنظيم ؟ لأي هدف ؟ وما هو مدى الاقتناع الجماهيري بها. والنتيجة الصارمة:

«أرى أن لا نحاول أن نفتعل علاقة غير طبيعية ما لم نهيىء لها الطريق وإلا سنساهم في تعقيد الأمور أكثر وأكثر».

○ الواقع أن المحاضر تشكل أمثولة حية في فن إدارة الصراع. ذلك أن ما تحمله الوثائق المدونة أساسا هو محاولة محددة الهدف، متعددة الأشكال لرفع تحدي الهزيمة. وقد يكون أهم ما يبقى في الذاكرة بعد الانتهاء من

الصفحة الأخيرة، تلك الجدلية المثالية المحكمة بين وحدة الهدف وتعدد الوسائل المفضية إليه. والأمر الثاني، الموازي أهمية، هو الشعور بأهمية مفهوم المرحلة في إدارة الصراع فلكل مرحلة قوانينها وأولوياتها. في إحدى صفحات الكتاب، يسأل حلمي مراد الرئيس عبد الناصر لماذا لا يفتح حوارا مع الامريكان. عبد الناصر يجيب:

«اليوم لا. لماذا؟ لأنني بالأمس فتحت هذا الحوار لأفهم واشنطن أنني لم أستنتج من الحرب ضرورة تحويل مصر إلى تشيكوسلوفاكيا أخرى تابعة لموسكو. وإني مستعد لفتح هذا الحوار غدا إن كان ذلك مفيدا. أما اليوم فإنهم سوف يعتقدون أنني ضعيف لأنني لم أكمل بناء القوات». بكلمة، لا يلغي عبد الناصر إمكانية استعمال أية مبادرة سياسية بشكل مطلق. المسألة في محتواها، في هدفها وفي توقيتها. وفي قراءة كلام عبد الناصر، إحساس مستمر بتعقيد الموقف السياسي الشديد. في المقابل يبدو عدد من الرؤساء العرب أيامها دون هذا الوعي بكثير. وهناك مفهوم آخر يبدو أساسيا في ذهن عبد الناصر هو مفهوم «الصورة». فهو يتساءل باستمرار، وقبل إبداء أي حكم أو القيام بمبادرة، ما هي صورته لدى الآخر (العدو إجمالا) وما هي الصورة التي يحاول الآخر أن يعطيها عن ذاته وإلى أي حد هذه الصورة صحيحة؟ وفي ذلك ممارسة يومية لعلم السيمياء، وبحث مستمر لما هو وراء الكلمات، أي السياسات.

بالمقابل يصاب القارىء بقدر لا بأس به من الاحباط عند تناول الشأن الداخلي المصري. كان عبد الناصر ناجحا في جعل الآخرين، حلفاء وأعداء، يعرفون إلى أي مدى ما زالت قيادته قابضة على زمام الأمور. وكان ثباته في السلطة بعد ٥ و٩ يونيو /حزيران، وبدون أي شك، ورقة الضغط الأساسية في يده. لكنه كان، على ما يبدو، قليل الاهتمام الفعلي بتطوير وسائل تثبيت هذه القيادة على الصعيد الداخلي. تلوح له أحيانا أهمية البناء الداخلي غير العسكري. يقول في ٢٨/ ١٠ مثلا: «إن الموضوع الرئيسي بالنسبة إلى عامل الوقت هو مدى قدراتنا الداخلية، مدى تماسكنا، مدى قدرتنا على التنمية الاقتصادية». في شباط / فبراير ١٩٦٩، يضيف بشكل تفصيلي: «لا بد من بذل أقصى الجهود للقضاء على الفساد ومحاسبة كل مسؤول مهما كانت درجاته. في البلد إشاعات عن عمولات ضخمة. علينا أن نراجع الصفقات والعمليات لأنه لا ينبغي أن نفتح للناس سككا وطرقا تؤدي بهم إلى الفساد والانحراف. المال السايب يعلم السرقة». يتخذ الكلام فجأة شكلا أخلاقيا لا سياسيا. هل لا يرى الرئيس العلاقة بين الفساد الداخلي المتوسع وضعف التعبئة الشعبية للمعركة؟ يبدو للقارىء أن المناور الحاد الذكاء يعود، في هذه المجالات، التي ستبرز السنوات اللاحقة أهميتها القصوى، إلى شعارات السنوات الأولى من حكمه، وإلى قدر لا بأس به من البساطة. وكأن «نظافته» الشخصية الاسطورية كافية لدرء خطر تآكل نظامه من الداخل!

الاهتمام بمزيد من الديمقراطية يمر ومضا سريعا في أفقه الذهني. من الواضح أنه كان يشعر بضرورة التغيير في البنية السياسية الداخلية، ولكنه لم يكن يعطي الأمر أولوية، كما أنه لم يسمع أحدا من رفاقه (إن اكتفينا بالمحاضر التي بين أيدينا) يشجعه على السير قدما في هذا المضمار.

ومن أصعب الأمور قبولا ذلك الانطباع الذي يخلفه الكتاب بأن الريّس يسأل، يحاور، يستشير ولكنه لا يقدّم لمحاوره كل المعلومات التي بين يديه بحيث يبدو المخاطب دوما دونه في القدرة على إبداء الرأي. التنظيم الهرمي للسلطة واضح جدا، كما التبرير المستمر لتأجيل عملية التغيير الداخلية: «أعتقد أنه يصعب خلق المعارضة المطلوبة قبل إزالة آثار العدوان». وكأن انغلاق تلك القيادات على نفسها وعلى امتيازاتها، وتخوفها من أن يدخل السلطة دم جديد، ليس سببا وجزءا من تلك الآثار □